

Effective Reading and Text Production (Arthroscopy Rooting)

Hanan Jaber Al Harthy

Department of Arabic Language/ College of Arts in Dammam/ University of Imam
Abdulrahman bin Faisal
hjalharthy@iau.edu.sa

Submission date: 28/2/2019

Acceptance date: 7/4/2019

Publication date: 18/4 /2019

Abstract:

The research is being undertaken the relationship between effective reading and literary text, as the levels of reading vary according to the reader's goals and methodology. Effective reading is a productive reading that goes beyond the passive recipient, to adopt a special strategy and a specific methodology for co-existence with the text and unlock my stories with the acknowledgment that the evasive meaning does not easily deliver itself to the reader. It is multiple of a readings and approaches plurality, meaning that the bookmark touches other aspects without them.

Reading, which means focusing on the dimensions of the text, and listening to the pulse of literary text as an aesthetic way and vision of the imagination and artistic formulation reality.

The aim of this research is to acknowledge between the reader and the text to format the new meaning, which means identifying the roll of the recipient in the production of new text according to his reading, each reading varies either by reference, reader, or text. So, is it true that text differs in its acceptant to the never-ending readings? And does references or literacy averages have a role in the differences in reading one text, and does have a role in meaning and reading variation? This is what we well try to uncover in this research.

Descriptive analytical has affected us, because we well follow the role of reading and the reader in creating the text, and other theoretical assets of productive reading.

Key word: effective reading, productive reading, Contextual readings, readings, open and closed text, Implicit reader, and literacy averages.

القراءة الفاعلة وإنتاج النص تأصيل تنظيري

حنان جابر الحارثي

قسم اللغة العربية/ كلية الآداب بالدمام / جامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل

الخلاصة:

يدور البحث في العلاقة بين القراءة الفاعلة والنص الأدبي إذ تعددت مستويات القراءة وتفاوتت تبعاً لأهداف القارئ ومنهجه. والقراءة الفاعلة هي القراءة المنتجة التي تتجاوز التلقي السلبي، إلى تبني استراتيجية خاصة ومنهجية محددة للتعايش مع النص وفتح مغاليقه مع التسليم أن المعنى مراوغ لا يسلم نفسه بسهولة للقارئ، وهو يتعدد بتعدد القراءات والمناهج، بمعنى أن المرجعية تلامس جوانب دون أخرى.

والقراءة التي نعني تركز على أبعاد النص، وتصغي لنبض النص الأدبي بوصفه أسلوباً جمالياً ورؤية تخيل وصوغ فني للواقع.

وهدف البحث يكمن في معرفة آلية التفاعل بين القارئ والنص بغية تشكيل المعنى الجديد، أي الكشف عن دور المتلقي في إنتاج النص من جديد وفقاً لمحددات قراءته، فكل قراءة تختلف باختلاف مرجعيتها، واختلاف القارئ، واختلاف النص. فهل صحيح أن النصوص تختلف في تقبلها لقراءات لانهاية لها؟ وهل للمرجعية أو المتوسطات القرائية دور في اختلاف القراءة للنص الواحد، وهل لها دور في توجيه المعنى وتعدد القراءات؟ وهذا ما سنحاول تبينه في البحث.

وقد أثرنا اتباع المنهج الوصفي التحليلي، لأننا سننتبع دور القراءة والقارئ في إنتاج النص، وسائر الأصول النظرية لعملية القراءة المنتجة.

الكلمات الدالة: القراءة الفاعلة، نظريات التلقي، القراءة المنتجة، القراءات السياقية، القراءات النسقية، النص المفتوح والنص المغلق، القارئ الضمني، المتوسطات القرائية.

١ - تمهيد:

لقد شاع مصطلح القراءة في ثقافتنا العربية المعاصرة شيوعاً لافتاً ليؤكد الطابع التأويلي لكل فعل من أفعال القراءة من جهة، وليؤكد الدور الفاعل الذي يقوم به القارئ في عملية القراءة وتشكيل المعنى وفق مرجعيات ثقافية تتجاوب بين النص والقارئ.

وبذا حملت القراءة في طيات معانيها؛ إدراك النص وإعادة إنتاجه بدءاً من اللقاء الأول مع النص والغوص فيه إلى تعمقه للكشف عن بواطنه ومرامييه المحجوبة فكان لزاماً علينا أن نميز بين القراءات التي أخذت بظواهر النص وأخضعته لمبادئ العلوم، والقراءة الخلاقة التي تغوص في مجال النص، وتستخرج المعنى من مظانه.

والمعنى والدلالة مختلفان؛ فالمعنى "هو الشيء الثابت الذي ضمنه المؤلف للنص، فهو متطابق مع ما في ذهنه ومع ما يقصد إليه ويرمي، في حين أن دلالة الشيء يتوصل إليه القارئ عن طرق التوقعات والاحتمالات التي يتيحها النص الأدبي نفسه" [١، ص ٧٢].

وهذا ما جعل المتلقي ركناً أساسياً في استكناه الجمال في النص الأدبي، وهو يكمل النص، ويملاً فراغاته

فإدراك النص لا يكون بلا متلق، ولذلك عنيينا بالقراءة والتلقي الذي يقوم فيه المتلقي بنشاط عقلي وفاعلية ذهنية في أثناء قراءة النص. فأعطي بذلك المتلقي/ القارئ اهتماماً كبيراً، ومعلوم أن الاهتمام بالقارئ لم يبدأ إلا بعد مرحلة البنيوية والسميائيات التي ركزت كثيراً على النص، وأقصت بشكل كلي مفهوم المؤلف والمرجع والسياق والإحالة. وكان التركيز على النص بوصفه مجموعة من البنيات الداخلية المغلقة، وعالماً من العلاقات اللغوية والايقونات البصرية. بيد أن النص في منظور السميائيات أخذ حيزاً كبيراً من الاهتمام على حساب القارئ الذي اهتم به رولان بارت، وتودوروف، وأمبرتو أيكو. ومن ثم، جاءت نظريات القراءة في مرحلة ما بعد الحداثة لتعيد الاعتبار للمتلقي بعد أن أقصي زمناً في القراءات السابقة.

لقد برز دور القارئ مع ظهور النظريات التأويلية، والفينومينولوجيا، والتداوليات، والنقد الثقافي، والنقد النسوي وغيرها، فبرز دور القارئ " كعنصر فعال في تناول النص وعملية التحليل والتأويل والإدراك والسرود والقص. ولعل ما يزيد في صعوبة تحديد هذه المدرسة هو إفادة ممارسي هذا النوع من النشاط النقدي من الطروحات الحديثة سواء اللغوية منها أو النفسية أو الحفرية أو البنيوية أو التقويض أو مكتشفات النقد النسائي. ولما لم ينتسب إلى هذا التوجه: سواء كان هو رولان بارت أو كان هارولد بلوم. والاسماء التي ترتبط بهذا النوع من النقد هي في الأصل الأسماء الألمانية، خاصة التي قامت على مقولات الناقد الهولندي رومان إنغاردن، أمثال: فولفغانغ آيزر وهمز روبرت يوس. أما على الجانب الأمريكي، فهناك نورمان هولاند وجيرالد برنس، وغيرهم كثير " [٢، ص ١٩١].

ولذلك يمكن أن نعد الاهتمام الذي أولته النظريات النقدية الجديدة للقارئ إنما " جاء كرد فعل على إهمال السياق الخارجي، وصب الاهتمام على النص ذاته (مقولة النقد الجديد)، فجاء نقد التلقي أو الاستقبال ليقلب المقولة تماماً، ويركز على سياقات النص المتعددة التي تقضي إلى إنتاجه واستقباله أو تلقيه. من هنا، كان استقبال النص يستتبع الاهتمام بالقارئ وبعملية القراءة وتحديد معنى النص وتأويله. ولئن كانت مثل هذه العناصر جزءاً من العملية النقدية عموماً، فإن أهمية القارئ أو هويته لم تكن إشكالية في السابق. فالأسئلة التي تعني بمن هو القارئ؟ وكيف يستقبل النص ويتلقاه؟ لم تكن مطروحة. وقد يستغرب المرء النتائج التي يمكن الوصول إليها عندما يكون القارئ أو هويته هي محور العملية النقدية " [٢، ص ١٩١].

٢ - قراءة النص:

يرتبط فعل القراءة بالنص، فيلقى مصيره مع كل قراءة، فالقراءات تتعدد بتعدد القراء واختلاف خبراتهم الجمالية والثقافية. [٣]*، [٤]، [٥]
وقد اختلفت القراءات وفق اهتمامها بأقطاب العملية الإبداعية (المبدع/ النص/ القارئ)، وبناء عليه فإننا نسلم بتصنيفها إلى قراءات سياقية وقراءات نسقية.

٣ - القراءات السياقية:

مصطلح القراءة:

إن مصطلح القراءة مصطلح متغير متطور، بدأت بمعنى محدد لا يتجاوز النطق باللفظ ثم تحولت إلى معنى أكثر فاعلية، فصار يعني العملية التي تبرز معنى ما من معاني النص بواسطة عدد من المفاهيم، وبناء على اختيار مستوى معين يتم اختراق النص على أساسه لا يعمل القارئ كلاقط سلبي للرسالة، وإنما يشارك الكاتب في إنتاج النص من جهة ربط المعاني ببعضها البعض وتبيان أثرها العام والخاص. وهي استقبال دلالة واضحة في النص. ما علينا إلا أن ننسخها بميكانيزمات تلقيناها في المدرسة لتبدأ القراءة الدينامية، وهي إنتاج بداءة بعلاقات نقيمتها ونبنيتها في النص. [٦، ص ٩٥].

فالقراءة تستند إلى إقامة علاقة ودية بين القارئ والمقروء، وأصبحت القراءة بديلاً من النقد، فلكي تنجز القراءة لابد من حضور طرفين: القارئ الشغوف بفعل القراءة، والمقروء الغني الثري المنفتح فيغدو بذلك الحضور المشروط حضوراً حوارياً تفاعلياً. وارتباط القراءة بالإنتاج يعني تجاوز الرأي القائل بحصر دور القارئ بالاستقبال والاستهلاك، وقبول فكرة القارئ المشاركة في إنتاج المعنى الذي يتحدد باتحاد عدة مفاهيم.

إن لحظة الكشف تبدأ بالانطباع المباشر الذي يخلفه النص في نفس المتلقي، الذي هو في حقيقته صورة فطرية نقية لذلك اللقاء بين النص وقارئه، لا تشوبه شائبة تعيق فعل النص الخلاق في إثارة الانطباع الفطري الأولي، وما لبثت هذه الصورة أن تصدعت وعلتها ضبابية عندما غدا المتلقي مجرباً يسخر النص لتجاربه وتحقيقاته العلمية لينتهي إلى أحكام نقلت من ميدانها العقلي لتصبح أحكاماً أدبية رزح تحتها النقد الأدبي بما حملته من أحكام غريبة عنه.

وقد كانت هذه القراءات قاصرة اختفى فيها دور القارئ، وربطت الفعل القرائي بإنجازات علم النفس والاجتماع والتاريخ.

[*] من صنف أنواع القراءات تودوروف، وجاء تصنيفه على النحو الآتي:

* القراءة الإسقاطية التي تركز على المؤلف أو المجتمع، وتعامل النص على أنه وثيقة لإثبات قضية ما (شخصية، اجتماعية، تاريخية) ينظر: الخطيئة والتكفير [3].

* القراءة الشرح أو التعليق، وتهتم بظاهر المعنى، وتركز على مسألة استبدال الألفاظ، فهي قراءة تكرارية غير منتجة. ينظر: [4، ص ٢٨].

* القراءة الشعاعية: وهي تقرأ النص من خلال شفراته بناء على معطيات سياقه الفني، وهي تتجاوز القراءتين السابقتين. ينظر: [5، ص: ٢٨]. وصنفت القراءات بناء على المنهج النقدي الذي يتبناه القارئ في تحليل النص إلى: القراءة الاستنتاجية التي تخضع نفسها للنص، فتبرز ما يبرز وتخفي ما يخفي. والقراءة التأويلية، وهي القراءة التي تسهم في إنتاج المعنى، وتعتمد على إدماج ما تحدث عنه الكاتب والقارئ. القراءة التشخيصية، وتعنى بالكيفية التي يقول بها النص ما يقول. ينظر: [5، ص: ٣٣]. وصنف دارسون آخرون القراءة وفق وظائفها. ينظر: نفسه [5، ص: ٢٨].

ولم يفت النقاد العرب الالتفات إلى إدعاء هذه القراءات التزام المنهج العلمي والجدة فيما تنتهجه، وإلى قصورها في فهم مكونات النص الذي تؤوله بحسب توجيهات السياق، أو تنتقي منه ما يخدم غرضها، فتقف عنده ثم تتجاوز إلى نقاط تراها تتجاوز وطروحاتها شأن القراءة النفسية على سبيل المثال. وتعد هذه القراءة العلمية الفنية في الأدب بمثابة الاستجابة لمنبهات نفسية تتمخض عنها حاجة ما أو بمثابة المتفلس الذي يفرز فيه الأديب بوح نفسه ويعبر عن اسقاطات نفسية أو حاجات و رغبات مكبوتة تعتمل في نفسه.

هذا يقودنا إلى القول بأن القراءة النفسية ستنتهي بالنقد إلى البحث في الأدب عما يؤيد نظريات وفرضيات علماء النفس، وتغدو قيمة النص محصورة في مدى تأكيد هذه الفرضيات، وتفقد التجربة الشعرية عنصر الاستمرار والخلود لأنها تصبح مادة يكشف من خلالها علل صاحبها [٧، ص ١٤٣] ولكن إذا ما خرج التحليل النفسي من الطوق المرضي إلى رحابة المعنى النصي وكان مدعاة لآليات التأويل الخصبة التي توظف بحوث علم النفس، لا في دلالتها على صاحب النص، بل في ملاحقة الرمز، فمادة العمل الفني: "لا توجد في تاريخ حياة الشاعر، وإنما تتبع من العمل ذاته. وهي تتبع منطق اللغة لا منطق العواطف، وكلما تعمقنا في أصل العمل الفني في حياة الشاعر بعدنا عن معناه الذاتي [٨، ص ١٤٦] وذلك لأن النص لا يعدو أن يكون نظاماً: لا شخصاً مغلقاً ينطوي على نفسه فقط، وكثير من عناصر العمل الفني يمكن أن تشرح في ضوء نقد الفن الذي يتجاهل شخصية الفنان. [٩، ص ١٤٨].

كما أن تحكيم التاريخ مادة ومنهجاً في النص الأدبي، وجعل السياسي باعثاً دوماً على الإبداع من إخضاع لتقسيم إلى القسمة السياسية إلى تعميم الأحكام وسحبها على فترات طويلة تتسم بالاضطراب الفكري والأدبي، وتمتزج فيها الثقافات والأهواء، ولاشك أن القراءة التاريخية عاجزة عن فهم روح الأدب لأنها تستعير مبادئها من التاريخ، ويزودها بطرائق للبحث تتفق وصورة العلم التي كانت سائدة لدى العاملين في حقل التاريخ، والنقد بطرائق التاريخ مرفوضة لأنه يؤدي بالدراسين إلى دراسة الأدب بموجب منهجيات قديمة ومستعارة لا تنطلق من جوهر المادة الأدبية ولا تؤدي إلى مقومات ونتائج سليمة [٩، ص ١٤] ويبدو أن هذا المسلك كرر إنتاجه شكلاً ومضموناً، وفرض على الأنواق نمطاً واحداً للأدب وخضعت القراءة الاجتماعية لعلم الاجتماع، وبدأ الأدب حقلاً تجريبياً خصب التربة، ولا يرى فيه القراءة الاجتماعية إلا مصطراً للإنسان ومشكلاته المادية، فابتليت القراءة الاجتماعية بأفة التعميم والاحتقال بالجانب الاجتماعي وإغفال النص في خصوصيته الإبداعية، وتوقفت عند الإطار الواحد ولم تتعداه، بل تكررت في صور وأشكال تغيب فيها معالم القارئ وتتلاشى أدواته وذاته.

ووجدت القراءة الأسطورية آلياتها في جوهر النظريات الانثروبولوجية وبخاصة فيما طرحه (يونغ) في الأنماط البدائية والنماذج العليا و(فرايزر) في علاقة السحر بالدين، وغيرها من الأطروحات التي ربطت الشعر بالدين مثل القراءة الأسطورية، وقد تشابهت جل القراءات في الطرح والنتائج فلا يحس القارئ وهو ينتبها إن إضافة مميزة تضيفها إحداها إلى التي سبقتها.

القراءات النسقية:

هذه القراءات السياقية حاولت أن تمثل الرؤى والمنطلقات المعرفية، حتى تجعل منها أرضية معرفية ومرتكزات نظريات صلبة تؤهلها للنظر في النص الأدبي، ولكنها ابتعدت عن مقاربة النص ويمت وجهها شطر الخارج تحاور حقوله المختلفة مستفيدة من معارفها التي يعززها البحث الفلسفي والتاريخي والاجتماعي والنفسية محاولة أن تبقي باب التدفق والتأثر مفتوحاً على الداخل حتى لا يغيب النص في ركاب الفرضيات

والتصورات، ولكنها في ركونها إلى الخارجي غيبت النص ولم تدرك التفاوت بين النص دالاً والنص مدلولاً، ولم تحدد معالمه النهائية لأن في وقوفها عند البنية السطحية على أنها له وجوده المستقل عن مؤلفه على الرغم من أنه ينتمي إليه، ولا يحقق ذاته إلا من خلال شكله الجديد وهذا ما غفلت عنه القراءة السياقية [١٠، ص ٤٠].

ولا شك أن القراءات السياقية هذه قراءات تنقيفية من شأنها أن تخصب حقل النقد في تشكيلها للحصيلة المعرفية لدى الناقد التأثير، فتوثق عدته، وتتخذ ذائقته، وتمده بفيض من المعلومات التي من شأنها إغناء الموضوع، بمعنى أن هذه القراءات مرجعيات يرجع إليها القارئ في أثناء القراءة النسقية الفاعلة التي توكل لنفسها مهمة الغوص في مجاهل عالم مغلق نقر بوجوده واستقلاله، فتبحث عن المعنى الخفي، وتردم الهوة بين الظاهر والباطن الشاهد والغائب [١١، ص ٧٠] وتتفخ في بنية النص، وتعيد إليه توثبه وحرارة وجوده أي أن القراءتين تتكاملان لتفضيان إلى إعطاء النص أبعاده الحقيقية.

وتتطلق القراءة الفاعلة من فك الرموز إلى التلقي الواعي، بما يكتنف التلقي ذاته من عوامل، فتكون أشبه ما تكون بقراءة الفلسفة للوجود إنها فعل خلاق، يقرب الرمز من الرمز، ويضم العلاقة إلى العلاقة، وسير في دروب ملتوية جداً، من الدلالات، ونصادفها حيناً وننهمها حيناً، ونختلقها اختلاقاً، إن القارئ وهو يقرأ، يخترع، ويتجاوز ذاته نفسها مثلما يتجاوز المكتوب أمامه، إننا في القراءة نصب ذاتنا على الأثر وإن الأثر يصب عليها ذواتاً كثيرة، فيرد إلينا كل شيء في ما يشبه الحدس والفهم [١٢، ص ٧٠] وهذه ما تدعى القراءة الخلاقة التي تبذل في قراءة النص من خلال تجاوزها النص، وما نص عليه، هكذا قرأ ابن عربي النص المقدس وتعامل معه وهكذا قرأ أيضاً ميشال فوكو ديكرت فكشف الوجه الآخر للعقل الديكارتي فالقراءة الخلاقة الفاعلة، تجاوز لما هو موجود، وكشف جديد، ولذلك جعل أحد الباحثين شرط القراءة وعلة وجودها أن تختلف عن النص الذي نقرأه، وأن تكشف فيه ما لا يكشفه بذاته أو لم ينكشف فيه من قبل. وأما القراءة التي تقول ما يريد المؤلف، فلا مبرر لها أصلاً لأن الأصل أولى منها، ويغني عنها. [١٣، ص ٢٠-٢١].

وبناء على اختلاف ما تسهم به القراءة في إنتاج النص سلباً أو إيجاباً، كان لابد من التمييز بين أنواع القراءة " فثمة قراءة تلغي النص، تقابلها قراءة تلغي نفسها هي أشبه باللاقراءة، القراءة الميتة، أما القراءة الحية، فهي تقرأ في النص المختلف عن ذاته ما يختلف في الوقت نفسه عنه، إنها قراءة تكون ممكنة، أعني فاعلة منتجة، في الاختلاف عن النص وبه أوله، والاختلاف ليس عيباً أو نقصاً، إنه على العكس إمكان وقوة، ولهذا ليس كل خطاب يبيح إمكان القراءة " [١٣، ص ٢٠] وهذا يستدعي التفصيل في التمييز بين النصوص التي تقرأ مراراً، وتتفتح على قراءات متعددة على اختلاف الزمن مما لا يمكن أن يقرأ إلا مرة واحدة.

٤ - النص المفتوح والنص المغلق:

إن النص الأدبي يفترض تلقياً خاصاً نظراً لخصوصيته، وعلى القراءة أن تدرك هذه الخصوصية بإدراك الفوارق الجوهرية، وإبرازها وتفكيكها وتأويلها من قبل قارئ فاعل، يحدد أبعاد النص وحدوده.

فهناك نصوص تسمى النصوص المفتوحة والنصوص المغلقة [*] [١٤]، [١٥] أو النصوص ذات البعد الواحد، أحادية المعنى، امبريالية التصور، فوحده الخطاب الملتبس المراوغ، المتشابه الدلالات، المتعدد

[*] تردد في مرحلة الحداثة وما بعدها مصطلحا "النص المفتوح والنص المغلق" وكان بداية عند صاحب أمبرتو إيكو في كتابه العمل المفتوح، ينظر: [١٤، ص ٧] القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ترجمة: أنطون أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦، وفي إطار

المستويات هو الذي يتيح القراءة الحية الكاشفة، ويستدعي أكثر من قراءة [١٣، ص ٢٠] فالأثر الذي يوحى بقراءات متعددة، وينطوي على معانٍ متعددة، يتحول من معنى مفرد إلى معنى جمع، ويتحول الأثر إلى نص مفتوح يوحى بمعانٍ مختلفة مما يخلده على مدى أزمنة عديدة.

هنا يمكننا القول: إن إنتاج المعنى ينجز حين يكون النص محاوراً نشطاً للقارئ، ويكون هذا الأخير فاعلاً أساسياً في تنشيط النص للإيحاء بدلالات جديدة ومتغيرة عبر تاريخ تأويلاته. وعلى هذا " يكون الأثر الأدبي ينتجه المؤلف الفعلي، أما النص فينتجه المؤلف الضمني أو القارئ. فهو إغناء للنص وإعادة إنتاج له (...) ذلك أن النص مكتوم في الكلام ولاستتطاق هذا النص لابد من طرائق تختلف من باحث إلى آخر، ولهذا يصبح الحديث عن استتطاقات عدة لا استتطاق واحد " [١٦، ص ٣٣].

٥ - تفاعل القارئ والنص:

نال القارئ اهتماماً كبيراً في الدراسات النقدية الحديثة، تجاوز فيه دوره بوصفه مستهلكاً " في العلاقة القائمة بين المبدع والقارئ على أنها علاقة منتج ومستهلك " [١٧، ص ٩٩] أي أن المتغير الحاصل هو التركيز على العلاقة بين النص والمتلقي، من حيث دوره في الكشف عن جمالية النص وكيفية تلقيه. فالمتلقي وفق هذه العلاقة يسهم في إبداع العمل الأدبي، وذلك من خلال إضافة ثقافته وخبراته القرائية على نص معين، وما النص إلا إنتاج يرتبط مصيره التأويلي بآلية تكوينية ارتباطاً لازماً، فتكوين النص يعني تطبيق استراتيجية عليه تتضمن توقعات حركة الآخر، والآخر هو القارئ بطبيعة الحال " [١٤، ص ٦٧] إذا فإن القارئ يتجاوز الثقافة وخبراته السابقة وطريقة استجابته للنص.

ترتبط القراءة بالقارئ، لذلك يختلف القراء في قراءتهم للنص، فكان لابد من توضيح أنواع القراء، لنبيين القارئ الباني، الذي يقف بموازاة بناء النص الأصل. فمن هم القراء البناة الذين تحدث عنهم النقاد وهل كل القراء سواء.

فالأهمية التي حظي بها القارئ والمكانة التي بوائه ورفعته إليها نظرية التلقي، أعطته حرية كاملة في إنتاج المعنى وصياغته، عبر التفاعل مع النصوص، فإن هذه الصلاحيات قيدت حرية القارئ حتى لا يسقط في ذاتية مفرطة تبعده عن روح النص، أو يتجاوز قصدية المؤلف. وإذا كان الأمر كذلك، فما هي مواصفات هذا القارئ الذي يعول عليه في بناء المعنى وإنتاجه؟

أ- القارئ المعاصر: ويتمثل دور هذا القارئ في إصداره أحكاماً نقدية على آثار أدبية في فترة زمنية معاصرة له؛ بحيث يعبر عن مجتمعه، وبطبع ذوقه بطابعه، والتاريخ يأخذ هذه الأحكام كشهادات على أثر معين.

ب- القارئ المستهدف: " أو القارئ المقصود فيتمثل فيها القارئ وهو فكرة القارئ كما هي مشكلة في ذهن المؤلف، والقارئ المستهدف قاطناً تخيلياً في النص ويمثل مفهوم إعادة البناء [١٨، ص ١٣٦] بمعنى أنه الصورة المسبقة في ذهن المتخيل.

مجل، يقصد (بالنص المفتوح) ذلك النص المحدد المصدر، والمحدد المستقبل، والمحدد المعنى، لكن تحديد المعنى لا يوقف مجموعة التفسيرات التي تلاحقه، ولذا قيل عنه (النص المفتوح). النص المفتوح والنص المغلق:

[15، ص 5] محمد عبدالمطلب، المصدر مجلة الأدباء - جمعية الأدباء - مصر، ٢٤، ٢٠٠٦، ص: ٥.

* أما (النص المغلق)، فهو ذلك النص الغائم الدلالة، ورغم ذلك فإنه لا يحتمل إلا تفسيراً واحداً، وهو ما يلاحظ بوضوح في النصوص القانونية، والعلمية، وعلى مستوى الأدبية نلاحظه في النصوص البوليسية وما يتصل بها من روايات الجاسوسية.

ج - القارئ المثالي:

هو القارئ المتخيل الافتراضي العارف بما يأتي به المؤلف، يمتلك القدرة على فك مغاليق النص، وفك شفراته المتحركة في نظام النص، والوصول إلى مقاصد النص ونواياه، ومن هنا فإن القارئ المثالي خلافاً للأصناف الأخرى من القراء، هو تخيل يفتقد إلى كل مرتكز واقعي، وفي هذا بالذات تكمن جدواه بوصفه تخيلاً، فإنه يملا الثغرات التي تتفتح خلال تحليل العمل والتلقي الأدبيين، ويستطيع بفضل مزاجه التخيلي أن ينسب إليه مضامين متغايرة بحسب نوع المشكل المطلوب حله " [٣٤، ١٩]

فالقارئ النموذجي هو الذي يتوقعه المؤلف، ويقدم نفسه بوصفه جزءاً في بناء النص، فهو إذن استراتيجية مبثوثة داخل النص، وليس بالقارئ التجريبي [١٤، ص ٣٠] ولعل من يرى هذا الرأي، سينظر إلى القارئ الضمني أنه لا يضطلع إلا بدور القارئ المسجل داخل النص، الذي هو بنية النص تتوقع حضور متلق دون أن تحدده بالضرورة، إن هذا المفهوم يضع نية مسبقة للدور الذي ينبغي أن يتبناه كل على حده " [٢٠، ص ٣٠].

د - القارئ الجامع:

وهو القارئ الأعلى الذي يعين مجموعة ذواقة للنقاط الحساسة للنص ويختبر ردود أفعالهم، إذ يبنون بردود أفعالهم وجود واقع أسلوب، ثم يجمع رؤى المخبرين ليصل إلى النص، وحين تظهر المفارقات داخل النص فإن هذا القارئ الجامع يلتقطها، وينهي بهذا الصعوبات التي تصطمم بها الأسلوبية التي تدرس الانزياحات عن الأصل [٢١، ص ٢٧ - ٢٩].

هـ - القارئ المخبر:

وهو القارئ العارف باللغة، وذو كفاءة لغوية، وقد بين الدارسون أن هذا القارئ وجد استنداً إلى النحو التوليدي للتحويلات ذلك أن " البنية السطحية تنتج لدى القارئ حدثاً ينبغي أن يعاش إلى النهاية قبل أن تصل به إلى البنية العميقة " [٢٢، ص ١٢٣].

٣ - القارئ الضمني:

هو المؤلف الضمني أو الأنا الثانية للمؤلف التي تتفصل عن أناه المرتبطة بشروط الواقع وتحدد بالعلم التخيلي، بحيث تكون هذه الأنا قادرة على تحقيق موضوعية العمل الأدبي لأنها تتحول إلى أصول متحاوره في كل عمل لا تنقيد باعتقادات المؤلف الحقيقي.

وبسبب وقوع هذه المفاهيم في دائرة الوظائف الجزئية فقد طرح مفهوم قارئ يظهر مثل نظام مرجعي للنص إنه القارئ الضمني [٢٠، ص ١٠٠].

إلا أن هذه الأنواع من القراء في نظر إيزر " عاجزة وغير قادرة على التفاعل مع النص، حيث سعى إلى تجاوزها ليصل بمفهوم معين بشأن القارئ وهو مفهوم " القارئ الضمني " فالقارئ الضمني كمفهوم له جذور متأصلة في بنية النص، إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقتها مع أي قارئ حقيقي [٢٠، ص ٣٠].

إن هذا القارئ المغروسة جذوره بصورة راسخة في بنية النص هو البديل الذي يتناسب تماماً مع توجهات نظرية إيزر وإن لكل نص أدبي مرجعيات خاصة، بإمكان القارئ المساهمة في تجسيدها في إنتاج المعنى الكامن داخل النص.

وعليه فإن القارئ الضمني هو محور عملية القراءة وهو مفهوم تجريدي ليس قارئاً حقيقياً أو قارئاً فعلياً، إذ إنه يحاول أن يجعل لنفسه وظيفة خاصة في فهم النص الأدبي وتحقيق استجابات فنية لتجاربه التي أصبحت خلفية مرجعية يستند إليها في عملية بناء المعنى، وهي وظيفة حيوية بين النص وبينه.

فالعلاقة بين النص والقارئ علاقة تفاعل، فالقارئ يقوم بربط أجزاء النص ولحمها من خلال ملء الفراغات أو البياضات التي تحقق الاتصال في عملية القراءة، وترسم الطريق من أجل قراءة النص، وتلزم القارئ بإتمام البنية النصية ليتم إنتاج الموضوع الجمالي [٢٣، ص ٨٦].

فالنص ينبغي أن يقدم ما يجعل القارئ قادراً على توليد الدلالة الجديدة، عبر ملء البياضات والفراغات هذا يعني ناتج عن تدخل القارئ وتفاعله مع النص المقروء، ذلك من خلال ملء الفراغات التي تخلخل تماسك النص الأدبي غير مكتمل يحتاج إلى إكمال من لدن القارئ.

وبناء المعنى ناتج عن تدخل القارئ وتفاعله مع النص المقروء، وذلك من ملء الفراغات التي تخلخل تماسك النص، وهذه الفراغات هي التي تتيح للقارئ كي يتدخل في النص ويملاً الفراغات، وهذا ما يسمى الفراغ الباني أو مدارسة فضاء النص [٢٤، ص ٢١٦] ويمكن أن تشمل:

- الانفكاكات التي تدعو القارئ إلى وصلها.

- إمكانية الانتقاء التي تدعو إلى التعصب ضد بعض ما يقدمه النص كحقائق أو مسلمات، وتحفز القارئ على التفكير والبحث عن التلازم وإيجاد الوضعية المشتركة. ولهذا يمكن القول إن النص يبني وفق قوانين تؤسس في غمار القراءة، وأن الانتقائية هي أساس التواصل أو الحوار الإيجابي بين نص والقارئ. ويمكن أن تتمثل الانتقائية في الشكل وتولد مجموعة من افتراضات، كما تتمثل في المحتوى حيث تثير الانتباه إلى مسألة الغياب في النص. والبياضات نوعان: بياضات وصلية يغفلها النص ليستخلفه القارئ في ترميمها، وبياضات فصلية هي حاصل العلاقة بين المكتشف والمستكشف في النص أو ما يسميه أيزر بالموضوعة وهو المكان الفارغ من المعنى أو الخلفية المجردة من التلازم الموضوعاتي [٢٥، ص ٢٠].

ولذلك كان انفتاحه وانغلاقه رهناً بالمتلقي وقدراته الموازية. فالنص يسلم نفسه بكل وسائله التعبيرية وأبنيته الأسلوبية وإحالاته المرجعية إلى قارئ محدد مهياً لاستقباله، فينقل إليه سلطة الإبداع ليسهم في إنتاجه من محاورته واستنطاقه. والمحاورة تعني التفاعل بين النص والقارئ لأنها تمثل " العلاقة الديالكتية التي تجمع بين النص والقارئ وتقوم على جدلية التفاعل بينهما في ضوء استراتيجيات عدة" [٢٦، ص ١١١].

يتبين مما قدمناه أن دراسة العمل الأدبي تعني الاهتمام بالنص فقط كما يعني الاهتمام بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع النص، لأن النص " ذاته لا يقدم إلا مظاهر خطاطية يمكن منها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص بينما يحدث الإنتاج الفعلي من خلال فعل التحقق ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي، الأول هو نص المؤلف والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ " [٢٠، ص ١٢].

فالفنية متضمنة في النص المتحقق (النص ذاته) وما يتضمنه المؤلف في نصه، أما الجمالية فهو ما يتعلق بما ينجزه القارئ عبر عملية القراءة والعمل الأدبي لا سبيل لتحقيقه إلا من خلال التفاعل المتبادل بين نص المؤلف والقارئ.

العمل الأدبي إذن، رهين هذين القطبين. لذلك استبعد فعل الإدراك [٢٦، ص ١١٤]. كأولوية في تأويل النص، لأن الإدراك ليس غير " الأمر يتعلق أولاً وقبل كل شيء بتفاعل قطبي عملية القراءة، بشكل يجعل اختزال العمل في أحدهما قتلاً لذلك العمل [٢٧، ص ٥٣].

إن هذه القطبية تصعب القبض على العمل الأدبي، لأن وجوده الفعلي رهين عملية التفاعل التي يلتقي عندها توجه المبدع باستجابة القارئ. وهذا ما ذهب إليه من قبل أحد الباحثين، إذ شبهه بـ " الخزوف العجيب، الذي لا وجود له إلا في الحركة. وإخراجه إلى حيز الوجود لابد من عملية حسية تسمى القراءة.

وهو يدوم ما دامت القراءة وفيما عدا هذا لا يوجد سوى علامات سوداء على الورق... [٢٨].
إذاً إن الأساس في فعل القراءة هو التفاعل بين النص والقارئ، فلا وجود للنص إلا بعد أن يتحقق ويتجسد عن طريق التفاعل مع القارئ.

والتسليم بدور القارئ في القراءة، يطرح أسئلة كثيرة منها: ما الذي يقرؤه في النص؟ وهل يستند إلى البنية النصية، أم يسقط عليه اهتماماته ورغباته؟

إن القارئ بفضل مؤهلاته التأويلية يولد معنى، ويمنع النص معنى قد لا يكون قد وضع فيه. من هنا كانت القراءة فعلاً مركباً، فهي ليست بسيطة تكفي بالنظر البصري، وليست إعادة تلقي النص بشكل "سلبى اعتقاداً منا بأن معنى النص قد صيغ نهائياً وحدد فلم يبق إلا العثور عليه كما هو، أو كما كان نية في ذهن الكاتب، إن القراءة عندهم أشبه ما تكون بقراءة الفلاسفة للوجود إنها فعل خلاق، إن القارئ وهو يقرأ يخترع ويخترق ويتجاوز ذاته نفسها مثلما يتجاوز المکتوب أمامه " [٢٩، ص ١٠٢] لذلك عدت القراءة مرحلة ضرورية لإتمام عملية إنتاج العمل الأدبي، الذي في حال افتقار إلى أداة تحققه وتجعله راهناً. "قالنص حسب هذا الرأي آلة كسولة، لأنه في عمقه معطى غير تام، معطى ينقصه الكثير، لتضمنه بياضات، و لاحتوائه على مناطق غير محددة، تنتظر القارئ المناسب لمثلها وتوجيهها وجهة تأويلية، فالنص لن يترك للقارئ المبادرة التأويلية، فهو في حاجة إلى مساعدة قارئ ما لكي يعمل " [١٤، ص ٣٠].

فالقراءة وفق هذا المفهوم لون من الفتح المتجدد لمغاليق النص، وهي بفتحها تضيف على الأثر الأدبي قيمة ماكنت لولا القارئ الفاعل الذي تجاوز المعنى الحرفي للنص، إلى المعنى الكلي، وهو المعنى الذي قصده فاليري " بالتكملة السرية للنص " [٣٠، ص ١٤١] التي تتبين فيها وظيفة القراءة.

كما ينطوي هذا المفهوم على آليات عقلية تقوم عليها هذه القراءة ووصف لأبعاد العلاقة التي تربط القارئ بترائه ومن حيث هي علاقات إدراكية تنطوي على مجموعة من المستويات وتتحرك عبر مجموعة من الوسائط، وتشكل حسب مجموعة من النظم والأعراف [٣١، ص ١١] مما يجعل المفهوم مرادفاً للتأويل أو مرتبطاً به الذين هو فن الفهم [١١، ص ١٠] أو العلم بما لم يعلمه الإنسان إنه استنباط من العلوم وانجاس في صميم الأصل، انجاس يسمح بتجديد الدلالة [١١، ص ٩].

هذا يعني أن القراءة تدور حول أقطاب ثلاثة: (النص، الكاتب، القارئ)، ثم تكشف عن شبكة من العلاقات المتعقدة التي تجعل كل قطب عاملاً صاعباً بالافتراضات والتصورات فالنص الأدبي لا يحقق فاعليته إلا بالقارئ الذي يعيد خلق النص بفعل القراءة، وتستمر عملية الخلق ما دامت القراءة فالأصل لا يمكن أن يتكرر بل يستأنف مع كل تأويل بطرق مختلفة تبعاً للمؤول، والاختلاف بين النصوص المؤولة ليس إلا اختلافاً بين الأنساق المعرفية التي تقولب الفكر لأن المعنى كما يفهم اليوم ليس معطى حرفياً يحمله النص، وإنما صورة تتشكل أثناء التقاء النص بالقارئ، فلا تكون بالضرورة شيئاً يحمله النص، بل يشارك في بنائه فقط. ومن هنا غدا التأويل " حفر في البناء القائم لهدمه وبلوغ النص التحتي الذي تشكل الفراغات، وتملاً أفاقه. والفراغ الذي كان يرتطم به الناقد القديم، وينزعج منه، أضحى بنية نموذجية في التأويل الحديث لأنه ديناميكية تتضاف إلى النص، فتساعد على خلق شيء آخر غيره أو ما يمكن تسميته بنص القارئ، إلا أن هذا الأخير لا يمكن التسليم به كمعطى قار بل لابد من الاحتراز إزاءه، لأنه سرعان ما يتحول إلى نص آخر، إذا غيرت الذات القارئة نمط القراءة ونسقها ووضعيتها، وزمنها لأن الشرح والتفسير إنما هو تحجيم لمعنى قائم في النص من خلال حرفيته، أما بناء المعنى بحسب ما يقتضيه فعل المشاركة، فهو خلق قد يلامس النص، ويتوافق معه، وقد يشتط بعيداً عنه ما دام كل مكتوب ليس مقصوداً لذاته [٣٢، ص ٩].

والمعنى المقترن بالاكشاف والتعرف وإنتاج معرفة جديدة بالنص المقروء يجعل القراءة تتجاوز مهمة اكتساب المعرفة الجاهزة أو استيعاب المقروء إلى قراءة تجعل من الذات القارئة ذاتاً فاعلة لا منفعة لا تقل أهمية عن الموضوع المقروء، ويكشف عن العلاقة المتبادلة بين القارئ والمقروء النص ضمن مجموعة من العلاقات التي تكشف عن تداخل مجاليهما المعرفي اللذين يساهمان في إعادة إنتاج النص.

وربما كان إفساح المجال أمام القارئ ليقول ما لم يقله النص في بنيته السطحية إيماناً بتعدد القراءة للأثر الواحد من شأنها أن تعيد مرات عديدة، لأن النص يظل " أغنى من عشرات التفسيرات، ويظل متعدد المعاني، ولا يمنح نفسه لتأويل واحد " [٣٣] ويرتبط تعدد التفسيرات بتعدد اتجاهات القراء النقاد ومذاهبهم، ويستمد العمل الأدبي ثراءه من خاصية التواصل المؤخر بما أن تلقي العمل الأدبي يحدث خارج إطاره الأصلي، فإنه يفتح على أكثر من تأويل، ويقبل أكثر من تفسير وذلك أن كل قارئ جديد يحمل معه تجربته الخاصة وثقافته الفردية وقيم عصره وهمومه، وينظر إلى النص بالذات القارئة وشروطها التاريخية. ولا ريب أن تنوع الدلالات متأثراً من تعدد القراءات. لأن القارئ حينما يستقبل النص، فإنه يتلقاه وفق معجمه، وقد يمد هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعها الكاتب حين أبدع نصه، ومن هنا تنتوع الدلالة، وتتضاعف، ويتمكن النص من اكتساب قيم جديدة على يد القارئ [٣، ص ٧٩].

واعتبار التأويل قبل فعل التأويل الذي يرشح النص لعطاءات متكررة ما دام التأويل قيمة نسبية تخضع لعوامل مختلفة كما ذكرنا.

فالقارئ لم يعد متلقياً سلبياً ولكنه " يمثل حصيلة ثقافية اجتماعية ونفسية، تتلاقى مع كاتب هو مثله في مزاج تكوينه الحضاري الشمولي، والنص هو التلقي لهاتين الثقافتين [٣، ص ٧٩].

هذا يفرض بنا إلى القول بأن أهمية دور القارئ تتصاعد في الأدب وتتوضح فلا نص قارئ، ولا أهمية للنصوص الأدبية على الرفوف لأنها عمليات تتجسد في فعاليات القراءة فقط وأن أهمية القارئ بالنسبة للأدب كأهمية المؤلف [٣٤، ص ٨٢] فالقارئ في القراءة المؤولة، يدخل النص كعنصر فعال " وتتحرك معه القصيدة لا كنص، وإنما كمجرة من الإشارات الشعرية تدل وتوحي، وتنفث سحرها في مخيلة القارئ، لتصنع أثراً جالياً يتمدد، فيكون شعراً فوق القصيدة، ودلالة فوق المعنى، وتكون الكلمة إشارة قابلة لكل أنواع الدلالات ومهيأة لأن توظف نفسها في أفق السياق الشعري المتجدد فهي إذن أثر مطلق، وليست مجرد معنى محدد [٣٥، ص ٧٩].

والنتائج عن هذا اللقاء بين القارئ كعنصر فعال والنص كعنصر فاعل هو الأثر وهو " فعل القراءة ناتجاً من النص أي أنه ضرب من العاشرة النصية أو تحويل اللغة من خطاب قولي إلى فعل بياني.. وبمجرد قراءة القصيدة، يتحول النص إلى عالم يخلصنا، ويصبح ملكاً لنا، ويتجذر في داخلنا ولا يفسد ذلك علينا أن إنساناً آخر هو الذي منحنا هذه الصورة، لأنني أشعر أنه كان بإمكانني أن أخلقها أنا بل كان علي أن أخلقها بالفعل، إن الصورة تصبح وجوداً جديداً في لغتي، تعبر عني بتحويل أنا على ما تعبر عنه، هنا يخلق التعبير الوجود " [٣٥، ص ٧٩-٨٠] فليس المقصود في القراءة الفاعلة إذن تلمس انعكاس الواقع على النص، بقدر ما هو خلق لهذا الواقع من النص.

ولعل فعالية القارئ في إنتاج النص اكتسب أهمية كبرى، وغدا القارئ الواعي القادر على كشف البعد الجمالي للإبداع الأدبي، أحد أثافي المعادلة الإبداعية علاوة على أن الكتابة الأدبية لا تكتسب بعدها الحقيقي بوصفها خطاباً فكرياً وجمالياً إلا بمشاركة القارئ؛ وعلى هذا تحول الاهتمام من فكرة الإبداع إلى فكرة التأويل الذي يؤدي فيه القارئ (الناقد) دوراً كبيراً ولا نغالي، إذا ما قلنا إن النص أو العمل الأدبي لا يحقق

وجوده كوجود واقعي فعلي إلا بقدر ما تحددها نوعية العلاقة بين القارئ والنص وأنساقهما المعرفية التي تعين على إدراك مقاصد النص وبناء على ذلك، فليس كل قارئ مؤول قادر على الكشف والإنتاج، كذلك ليس كل قراءة مقبولة. فلا بد لها من ضوابط تعصمها من الزلل والانزلاق في الافتراضات المسبقة والتحيز إلى جانب المبدع أو ضده. حيث إن ذلك من دواعي الحيادية.

والقراءة المحايدة قراءة نقدية تروم استجلاء بيئة الأرض الجمالية في ظل موقف نقدي يطمح إلى تشييد النص بمنأى عن المقولات الجاهزة المسبقة التي تؤدي إلى فقدان المعنى، وضياح هوية النص، وتجاوزاً هنا لابد من القول إن تغليب نسق معرفي على آخر وفق معتقدات القارئ هو الذي كان وراء التعدد والاختلاف، وتفرق الكلمة والجماعة في ماضينا وحاضرنا، لأن كل مؤول يغلب دلالة على أخرى، ويزعم أن تأويله هو التأويل الحق، وإن كل فرقة ترى أنها تملك التأويل الصحيح، وإن ما عداها بطلان وضلال.

ولضمان براءة القراءة يستعين القارئ بأدوات القراءات المنتجة الفاعلة التي تنطلق من الخبرات القرائية المكتسبة سابقاً، ويوجهها العقل المسدد لمسار القراءة والمرشد إلى فحص مكونات النص.

إن القراءات المسبقة تقوم بدور حاسم مزدوج في فعل القراءة، فهي تكشف عن الفاعلية المتبادلة لكل من القارئ والمقروء، كما تكشف عن القواعد الضمنية التي تتحكم في توجيه حدث القراءة، فالقارئ فعل ذاتي ونشاط فردي ينصب على مقروء ولكل منهما حضوره، فالقارئ له " حضوره الممتد في شبكة معقدة من العلاقات القائمة في تاريخ معين " [٣٦، ص ٢٥٤] فهو يباشر قراءته وهو منطوق سلفاً على أنساق معرفية قبلية سابقة، تسهم في تكيف فهمه لمعنى المقروء أو أدائه له، والمقروء بدوره له حضوره الممتد في شبكة مقابلة وينتمي إلى نسق معرفي من أنساق تاريخ صنعه ويشير إلى علاقته بهذا النسق كما يشير المدلول إلى داله [٣١، ص ٥٤].

فالقارئ، حين يباشر النص، لا يأتي من فراغ بل يقبل على النص وهو محمل برواسب ثقافية وأعراف أدبية تشكل البناء القبلي للإدراك أو البناء المعرفي الذي يعد نقطة انطلاق في عملية الفهم، فبدائية عملية الفهم لا تخلو من افتراضات مسبقة بحكم ارتباط الناقد بقيم ثقافية ولغوية واجتماعية ولا تخلو من لانطلاق من هذه الأفكار لأنها من العناصر الفكرية التي لا فكاك منها، وذلك أنه " ليس ثم تفسير نابع من خلاء أو حياء وهمي، فالعالم لا يتجلى لنا قط خالياً من الافتراضات، إن عملية فهم النص إذن في غياب افتراضات سابقة غير ممكن التجسيد، الافتراضات عريقة في الوجود " [٣٧، ص ٨١]، غير أن الافتراضات الإيجابية التي تقبض على مفاصل النص، وتدفعه في اتجاه الإضاءة والكشف والوضوح والإبانة هي من العناصر الأساسية في كل تفسير موضوعي، بينما التصورات القبلية المستمدة من الإيديولوجيا والمستبددة، هي عوامل متسلطة على النص تسلطاً قهرياً لا فكاك منها إلا بطرحها خارجاً للوصول إلى الكينونة الأساسية للنص، وفي كل قراءة يجب أن يتم التخلي عن الشيء، وإلا فلن نصل إلى معنى، إن إغفال ذلك الشيء مهم بمعنيين: من دون ذلك الإغفال لن يتبلور أماننا معنى، إن إغفال يصبح ما نريد فهمه هو ما هو موجود، وفكرة التخلي هذه ضرورة لحصول الفهم والإدراك. ذلك أن الإدراك مشروط بالتصور المسبق من خلال تفاعل ثنائي خصب، ولعل ما يستوجب هذا التفاعل الطبيعي استحالة الإدراك الصرف للنص، ومن ثم فإن التأويل الأمثل للأدب يتم بعيداً عن التحيز. وعلى هذا تكون القراءة الأعدل رحلة استكشافية مضنية بمنأى عن التدخل الذاتي، ولكن تحكمها الأنساق المعرفية الموجهة للقراءة، بمعنى أن حدود القراءة الأعدل داخل النص، ذلك لأن النص لا يلتبس خارج حدوده.

ولكن هذا لا يعنى القول ببراءة القراءة ولكن على ألا تتحول التأويلات إلى مذاهب ومعتقدات أي أن يتحول المؤول إلى منظومة فكرية مغلقة لا تنتج إلا مقدماتها الإيديولوجية وهذا ما سنناقشه لاحقاً عند دراسة دور المتوسطات القرائية في فعل القراءة.

إن لهذه الأنساق المعرفية " دوراً شبيهاً بالدور الذي يعزوه بياحيه إلى كل من عمليتي الملاءمة والتمثيل في فعل الإدراك خصوصاً حيث يذهب بياحيه إلى أن النفس مزودة بمخططات خاصة، مبدولة لها قبل فعل الإدراك وأنها أي النفس عندما تواجه موقفاً من المواقف، فإنها تستجيب إليه بتكيف مخططاتها السابقة مع الموضوعات الجديدة لهذا الموقف، وتلك هي المواءمة، في الوقت الذي تتكيف فيه الموضوعات الجديدة للموقف مع المخططات القديمة السابقة وذلك هو التمثيل. وفاعلية الأنساق شبيهة بالفاعلية المتبادلة للملاءمة والتكيف من زاوية العملية التي تتكيف فيها الأنساق القبلية السابقة للقارئ لتتلاءم مع الأنساق الموازية الخاصة بالمقروء في الوقت الذي تتكيف فيه الأنساق الخاصة بالمقروء لتنتمل الأنساق الخاصة بالقارئ في فعالية متبادلة، يتعدل بها كلا الطرفين على السواء، وبكيفية يغدو معها المعنى الناتج عن فعل القراءة معنى مركباً ناتجاً عن تفاعل طرفين، وليس إسقاطاً من أحدهما على الآخر. أو استعادة إحدهما للآخر.

ومن هذه الزاوية الخاصة بالمعنى، فإن التفاعل بين الطرفين تفاعل بين أبنية أو منظومات من القواعد الضمنية التي تنطوي عليها كل من أنساق القارئ والمقروء، فهو تفاعل بين محركات قرائية أو موجّهات أدائية، تحدد للقارئ ما يمكن أن ينقري في المقروء، وتوجهه إليه، في الوقت الذي تدل عليه [٣١، ص ٥٤-٥٥].

ولهذا الأنساق المعرفية التي يندرج فيها كل من القارئ والمقروء، قدرة مزدوجة في توجيه القراءة فقد يتحكم نسق معرفي في توجيه القارئ، وهذا الأخير يمارس فعل القراءة بهدية، وفي ذات الوقت هناك سلطة للمقروء بما يتضمنه من إمكانات دالة تلفت الانتباه إلى ذاتها أكثر من سواها. فتجاوب أنساق القارئ والمقروء يقلل من اختلاف القراء في تأويل نص معين. وتقليص الاختلاف لا يعني أن يكون المعنى الناتج عن هذا التفاعل بين الأنساق واحداً في كل قراءة فعل متقلب متغير عبر الزمان والمكان، إذ ليست القراءة عملية آلية بسيطة، بل عملية مركبة تسقط الذات القارئة بحمولتها المعرفية القبلية والاعتقادية على المكتوب، فلا ترى فيه إلا من خلال الاقتصادي والسياسي والديني لذلك يقال: " إن فعل القراءة فعل متعدد بالقوة من خلال ذلك كله نجنح إلى تعددية القراءة وتعددية الأشخاص، وتعدد أهواء، وتعدد أهواء وتعدد الثقافات، واختلاف الأزمان، وتباين الأمكنة [*].

فالقراءة إذن - وفق هذا القول - كشف للذات، فالمؤول يقرأ بالأصل من خلال تجاربه وخبراته ومعارفه، ومن ثم تختلف التأويلات مع كل قراءة للنص. لأن القارئ يرمي إلى غاية من خلال قراءته، فيسعى إلى إثبات غرضه أو هدفه ولهذا يقال إن كل قراءة مغرضة [٣٩، ص ٩].

والإيمان بتعدد الهوى والأهداف والمرامي، وتعدد الثقافة واختلاف الأمكنة وتباين الأزمنة، إقرار بتحيز القراءة، ما دامت تصدر عن هذه المنازع بالذات وهي تحاور النص الإبداعي.

[*] أورد هذا القول عبد الملك مرتاض في التحليل السيميائي للخطاب الشعري، مجلة علامات ج ٥، ص: ١٤٩، ٣٨، ١٩٩ م، ٢.

غير أن ما ذكرناه من تجاوب أنساق القارئ والمقروء، يولد أثراً وهي الأمشاج التي تصل بين القارئ والمبدع التي يشكلها قصد الكاتب وغرض القارئ، فيكون اللقاء وسطاً بين هذا وذاك أي " تحول اللغة من خطاب قولي إلى فعل بنائي، وتخيل الواقع الإنساني بانقلابه إلى سحر إبداعي [٣٥، ص ٧٩].

وهي حالة توحد بين النص والقارئ، بتحريك من القارئ لطاقتها المجنوعة، ليكتشف ذاته ورغباته ولذته. وهذا يعني أن العلاقة المتفاعلة بين أنساق القارئ، المقروء ليست علاقة بين طرفين متضادين معرفياً أو متدبرين زمنياً بالضرورة فالتضاد لا علاقة له آلية التفاعل، والتاريخ زمن محايد، فضلاً عن أن الأنساق المعرفية لكل من القارئ يمكن أن تتجاوز أو تتقابل أو تتشابه وتتماثل على المستوى الآني للزمن التاريخي الواحد. أو على المستوى المتعاقب لأزمان تاريخية مختلفة، ولكن أياً كانت العلاقة تظل دائماً علاقة تجاوب وتفاعل داخل فعل القراءة وخارجه، أي المنظومة الفكرية الأوسع التي يتحرك فيها النص المقروء، والقراءة الواعية هي الكفيلة بالكشف عن هذه المنظومة الفكرية. وفهم النص في غياب هذه الأنساق المعرفية غير ممكن لأنها أنظمة كبرى أو أطر ثقافية، تتحكم في القدرات القرائية والإنتاجية.

وتجسد هذه الأنساق جدلية الخفاء والتجلي، فما هو حاضر في يشير إلى ما هو غائب عنه على مستوى التشابه الذي يصل النص بنسقه الأوسع، فالعلاقة بين الحاضر والغائب علاقة جدلية، إذن، والنص لا يتكون مما ذكره وأثبتته فقط بل هناك شيء محذوف باطني، يركن إلى الظاهر في التعبير عن نفسه، ويخفي نفسه في حناياه أيضاً. وإيلاء الأهمية للظاهر قصور في عملية الفهم والإنتاج الجديد وعملية استحضار الغائب: تفيد في تحويل القارئ إلى منتج للنص مما يجعلها مضاعفة الجدوى، فهي من ناحية تثري النص إثراء دائماً باجتلاب دلالات لا تحصى إليه ومن ناحية أخرى تنفيذ في إيجاد قراء إيجابيين يشيرون بأن القراءة عمل إبداعي، وهو شعور لا يمكن تحقيقه إلا إذا أحس الإنسان أنه يقدم شيئاً إلى النص عن طريق تفسير إشاراته حسب طاقة القارئ الخيالية والثقافية وهذا التفسير هو فعالية صادرة من القارئ مما يشعره بأنه يمتلك هذا النص المفسر حين يشارك في إنتاجه " [٣، ص ٨٢ - ٨٣].

فالإطار الثقافي يتفجر لحظة تحرك القارئ في تلك اللحظة المعرفية التي ينطوي عليها حدث القراءة. فالنص في حال وقوعه بين يدي القارئ يصارع وجوداً جديداً، قد يخالف كلية وجوده كإبداع ما دام فعل القراءة ينطلق منه ابتداء ليختبر أدواته في حوارها مع النص، والقراءة الفاعلية تحددها المادة التي سيفرغها القارئ على أحداث النص وقيمه الفنية، وهي مادة تشكلت خارج النص في وعي من القارئ أو غير وعي منه، إذ إن الترسيبات الواعية واللاواعية تحيل إلى مرجعية شديدة التعقيد تقضي المعرفة بها إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية الكونية، وهي في إقبالها على النص تقوم بعملية مقاسية، فتقبل من النص ما يوافق تلك التصورات، وترفض ما يخالفها، فيكون الاستحسان والاستهجان ذي الصبغة الذاتية حين يبديه القارئ استحساناً أو استهجاناً تحيل إليه المرجعية القائمة وراءه، وكان القارئ ينطق عنها بلسانه فقط وقد بفسر هذا بسلب إرادة القارئ وتغيب ذاته، غير أن هذه الوجه بالذات مسألة تتضمنها المرجعية كإمكانية فردية تتحقق من كل ذات قارئة فيكون التصور الذاتي المحض إمكانية قائمة في المرجعية ويمكن تبريرها وتفسيرها، وليست بحال من الأحوال مصادرة لذاتية القارئ.

وإذا كان حدث القراءة يتضمن عناصر ثلاثة أساسية القارئ النص الأنساق المعرفية التي تحيط بهما، فإن تفاعلها يساهم في إنتاج النص. أما وسم القراءة بالموضوعية، فأمر يتعلق بالحضور الفاعل لأحد عناصرها أو غيابه.

ولعنا لا نفارق الحقيقة عندما نقول إن القراءة فعل غير بريء بالمطلق لأن القراءة تجربة شخصية، وما دامت مغرضة وأسيرة عوامل سابقة على الذات القارئة لا يمكن الكون إليها بالمطلق لأن كل حكم يصدر عنها يمكن تسويغه عبر مرجعية الفكر ومن ثم رده أو قبوله. لذلك تتعدد التأويلات للنص الواحد، ولكن التعدد غنى كما ذكرنا سابقاً إلا إذا سقط في مهاوي الإيديولوجيا.

٦ - المتوسطات القرآنية:

وهذا الأمر يؤول بنا إلى مناقشة الدور الذي تقوم به تلك المرجعيات أو المتوسطات القرآنية في حدث القراءة من المنظور الذي يلقي مزيداً من الضوء على تسرب الإيديولوجيا إلى عناصر حدث القراءة من ناحية وما تقوم به هذه المتوسطات من أدوار سلبية أو موجبة داخل ذلك الحدث. فقد تكون متوسطات فاعلة تثير لحظة القراءة، وقد تنحرف بلحظة القراءة فتتفى الموضوعية عن فعلها وتسقط في تحليلات لا يحكمها ضابط أي أن سلطة المرجعية التي تمارس فعلها في القراءة وسط كم زاهر من المعطيات السابقة قيدت الفعل الإبداعي كتابة، وتقيدته فيها بعد قراءة.

ولا شك أن تلك المرجعيات قراءات سابقة لها حضورها السالب في قراءة النص لأنها تؤدي في غيبة الوعي النقدي بها إلى قراءة تقليد، يتحول معها القارئ إلى نقلي عندما يستسلم إلى الصيغ النفسية المتركمة داخل القراءات السابقة، فيستقبلها استقبلاً آلياً. ويعيد بثها لا شعورياً تحت وطأة قداسة الموروث. [٤٠، ص ١٤٤]

وتقوم تلك الوسائط بأدوار إيجابية عندما يحاور القارئ النص ويتجاوز منطق النقل الآلي ويحرص على الإضافة انطلاقاً مما هو موجود.

ومهما يكن من أمر فإننا لا نجزم بحيادية القراءة التي لا فكاك لها من الخضوع للإطار الثقافي العام الذي يحوط بالقارئ والمقروء علاوة على أن لكل قراءة أو تأويل مشروعاً فكرياً وسياسياً خاصاً، " فإذا ما انحاز إلى تيار معين فإنه انحاز إلى مشروعه " [٤٠، ص ١٤٤].

فالتجرد التام ساعة الدخول حرم النص محال، لذا يتشكل النص الجديد المنتج تشكيلاً جديداً، باكتساب أشياء وفقدان أخرى عندما تتولاه المرجعيات الثقافية. وهذا النص غير ثابت، بل متغير بتغير القراء.

٧ - خاتمة:

نخلص مما تقدم أن القراءة الفاعلة تتجاوز فيها عناصر ثلاث: قارئ والمقروء و الأنساق المعرفية التي تتوسط بينهما، حيث يكون القارئ فيها مساهماً في إنتاج النص، ويتجاوز النص الإبداعي لتغدو بذلك القراءة فعلاً إبداعياً متجدداً، فهي إذن ليست إعادة وروتينا أو حتى نمطية منهجية نطبقها سلفاً على الأثر، بل إنها إعادة تركيب وصياغة مبدعة لعلاقات لغوية ضمن نص كبنية أدبية، وكأني بالنص هكذا يصبح مجرد عذر يتيح لنا فرصة لتعلم القراءة من جديد أو لطرح إشكالياتها على ضوء تجربة مختلفة عن تلك التي سبقتها، وكأني بالقراءة في كل تجربة مع النص تصبح تجربة مستقبلية جديدة للتلقي، تؤسس لوعي مختلف وإنتاج جديد يبدعه القارئ، ليتجدد بدوره عبر الزمن، وليؤسس لتجربة تلقى أخرى جديدة.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

٨- المصادر:

- ١- إبراهيم خليل، نظرية الأدب وعلم النص: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠.
- ٢- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠.
- ٣- عبدالله الغدامي، الخطيئة والتكفير، من النبوية إلى التشريحية: منشورات النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٨٥.
- ٤- بو جمعة بو بعيو، آليات التأويل وتعددية القراءة مقارنة نظرية نقدية، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٩.
- ٥- محمد عزام، سلطة القارئ في الأدب، الموقف الأدبي، ع ٣٧٧، أيلول ٢٠٠٢.
- ٦- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي- إنجليزي- فرنسي) دار الحكمة، ٢٠٠٠.
- ٧- أحمد حميدوش، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث: ديوان المطبوعات، ١٩٩٠.
- ٨- مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي: دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.
- ٩- ريمون طحان، ودنيز بيطار، مصطلح الأدب الانتقادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٤٨.
- ١٠- عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين؟: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٣.
- ١١- على حرب، التأويل والحقيقة، قراءات تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير، بيروت لبنان، ط ١، ١٩٨٥.
- ١٢- حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية: دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥.
- ١٣- علي حرب، نقد النص: المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء ط ٢، ١٩٩٥.
- ١٤- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاقد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦.
- ١٥- محمد عبدالمطلب، مجلة الأدباء: النص المفتوح والنص المغلق: جمعية الأدباء، مصر ع ٢، ٢٠٠٦.
- ١٦- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية - دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤.
- ١٧- موسى سامح ربابعة، جماليات الأسلوب والتلقي، دراسات تطبيقية، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، تاريخ وصول الباحث الى المصدر سنة ٢٠١٩.
- ١٨- عبدالناصر حسن محمد، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي: المكتب المصري، القاهرة، ١٩٩٩.
- ١٩- حافظ إسماعيل علوي، مجلة علامات في النقد المجلد العاشر، الجزء ٣٤، النادي الأدبي الثقافي، جدة المملكة العربية السعودية.
- ٢٠- فولغانغ آيزر، فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ترجمة: الجبالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس، المغرب، (د. ط)، تاريخ وصول الباحث الى المصدر سنة ٢٠١٩.
- ٢١- فولغانغ آيزر، فعل القراءة، نظرية الوقع الجمالي، ترجمة: أحمد المديني مجلة آفاق المغربية، ع ٦، ١٩٨٧.

- ٢٢ - ميشال ريفانير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد حميداني، منشورات دار سال ط١، المغرب ١٩٦٣.
- ٢٣ - روبرت هول، نظرية التلقي - مقدمة نقدية، ترجمة: خالد التوزاني والجيلالي الكدية، منشورات علامات - الطبعة الأولى - ١٩٩٩.
- ٢٤ - أحمد يوسف، يتم النص الجينالوجيا الضائعة (تأملات في الشعر الجزائري المختلف): منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٢.
- ٢٥ - محمد خرماش، فعل القراءة وإشكالية التلقي: بحث مقدم لمؤتمر النقد الأدبي السابع، جامعة اليرموك، إربد، الأردن ١٩٩٨/٠٧/٢٢.
- ٢٦ - سامي إسماعيل، جماليات التلقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر ط١، ٢٠٠٢.
- ٢٧ - عبدالعزيز طليمات، الوقع الجمالي وآليات الوقع عند وولف غانغ آيزر، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، عدد ٦ - ١٩٩٢.
- ٢٨ - عادل بوحوت، جمالية التجاوب في الأدب... الأسس والمفاهيم والإشكالات.: <http://thaqafat.com>.
- ٢٩ - علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠.
- ٣٠ - لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب: بحث في فلسفة اللغة و الاستاطيقا، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ٣١ - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق ط١، ١٩٩١.
- ٣٢ - حبيب مونسي، القراءة والحداثة (مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية)، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٥.
- ٣٣ - خلدون الشمعة، النقد والحرية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ط١، ١٩٨٩.
- ٣٤ - تيري إيفلين، مقدمة النظرية الأدبية، ترجمة: إبراهيم جاسم العلي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٢.
- ٣٥ - عبدالله الغدامي، تشريح النص: دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- ٣٦ - جان بول سارتر، ما الأدب، ترجمة: محمد غنيمي هلال، القاهرة، ١٩٦٩.
- ٣٧ - مصطفى ناصف، نظرية التأويل: النادي الأدبي، جدة المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٠.
- ٣٨ - عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، مجلة علامات ج ٥، م ٢، ١٩٩٢.
- ٣٩ - عبدالفتاح كليطو، مسألة القراءة، دار توبقال للنشر ط١، ١٩٨٦.
- ٤٠ - محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.